

علم (النحو والصرف) في العصر المملوكي (648 – 923هـ/1250 – 1517م)

إعداد: نزار داوود سلطان

حاصل على درجة الماجستير في (تاريخ العرب والإسلام)

قسم التاريخ – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة البعث

الملخص

يعد علم (النحو والصرف) أحد العلوم التي نالت الرعاية ورزقت العناية في العصر المملوكي، فظهر عباقرة وعلماء هذا الفن، ونشط فيه حركة التأليف والإبداع، فكان ابن مالك، وابن حيان الغرناطي، وابن هشام، وابن عقيل، والسيوطي وغيرهم.

yntax and Morphology in the Mamluki Era (648-923Hj / 1250-1517Ad)

Abstract

(Syntax and morphplogy) is considered as one of the genres that received attention and care in the Mamluki era, Many of the volunteers and scholars of this art had been appeared, and theprocess of authorship and creativity had taken an active rolein, to mention some of them: Ibn Malik, Ibn Hayyan AL-Gharnati, Ibn Hisham, Ibn Aqeel, AL-Siouti, and others.

علم (النحو والصرف) في العصر المملوكي

أولاً- المقدمة:

ثانياً- نشأة علم النحو والصرف:

ثالثاً- اللغة العربية في العصر المملوكي:

رابعاً- علم (النحو والصرف) في العصر المملوكي:

خامساً- الخاتمة:

المقدمة:

إن قوة الدولة هي التي تشكل الضمانة لصيانة الكيان الحضاري، والحضارة لا تكشف عن إبداعها إلا إذا توافر الإنسان الفعال والمجتمع الحركي والدولة القوية، وازدهار أي حضارة لا يتأتى إلا وفق مسارات منسجمة مع أحكامه ومقوماته المتكاملة، وهذا ما سعت إليه الحضارة العربية وبمختلف أدوارها، فواقع التاريخ العربي والإسلامي يشير إلى محاولات عديدة ومكررة لإقامة دولة راشدة، دولة تحقق السبق الزمني، وتتخطى الإطار المكاني، تلك المحاولات التي قادها رجال كبار وجدوا أنفسهم في مواقع المسؤولية، تلك المسؤولية التي قد تتعاطم بخطر خارجي أو بتحد داخلي، فحاولوا إعادة صياغة الحياة من جديد، وبما يتوافق مع طبيعة تلك التحديات، وبما ينسجم مع قيم الإسلام ومبادئه، وعن دور الإنسان المسلم، فيكمن في حيويته فهو يحمل الاستعداد للعودة، تلك العودة التي كانت تتحقق كرد فعل لبروز التحديات أو في أعقاب بروز قيادة واعية مؤمنة، هذه العودة التي كانت تخرجه من ضيق الدنيا إلى سعتها.

فبعد غزوات المغول التي لم تبق ولم تذر، والتي أجهزت على معاقل الحضارة الإسلامية، وهدمت صروح النهضة، وأطفأت منارات الأذهان، وبددت ذخائر العقل، وأغرقت نفائس المصنفات، وشردت رجال العلم في البلاد التي ضربت ثراها حوافر خيلهم، كانت العودة المنشودة على يد مصر التي كانت لهم بالمرصاد، والتي نجت من شرهم، ورفض المماليك لقيدهم، وبعد أن دخلت بلاد الشام في حكمهم - أي المماليك - أضحت بذلك مصر وبلاد الشام أرقى البلاد الإسلامية، فوقع عليهما عبء المسؤولية، وإعادة صياغة الحضارة الإسلامية، أما عن القيادة الواعية، فقد أنشأ المماليك الدولة الفتية، وعلى الأقل يمكن القول أن سلاطينهم كانوا أكثر مجارة للرعية في نزعاتهم الدينية والعلمية، فصبغوا ملكهم بالصبغة الدينية (فهم حماة الخلافة الإسلامية) ودفَعوا العلماء إلى نشر العلم بالتدريس والتأليف، فكان لهم في ذلك مفاخر ومآثر، وقد غصت كل من القاهرة والإسكندرية وأسيوط والفيوم ودمشق وحلب وحمص وحماة والقدس بالمكاتب والمساجد والمدارس، فأصبحت مقصد الأحرار وملتقى العلماء من كل مكان، فأينعت ثمار مقاصدها (السلاطين والرعية) وأعادت للحضارة ذخائرها، وللتقافة بريقها، وسمت

مكانة علمائها، فغزر إنتاجها، ومألت بطون المكتبات بمؤلفاتها، لتعويض هذا الخلف عما دثر عن ذاك السلف، فكانت العودة المحمودة، وإن غلب على هذا العصر طابع العلوم الدينية، فإن ذلك لا يعني أبداً غياب العلوم النظرية أو التطبيقية عن ميدان الحركة العلمية، بل على العكس تماماً فقد كان لها نصيبها في نسق إعادة صياغة الحياة من جديد.

ومن الملاحظ عند دراسة العصر المملوكي أنه ما من عصر من عصور الحضارة العربية الإسلامية أصابه من الظلم في الأحكام والإهمال في الدراسات ما أصاب هذا العصر وناله، والاكتفاء بحكم سريع على هذا العصر وإطلاق أحكام عامة وقوالب جاهزة والتي في الأغلب وضعها بعض المستشرقون على أنه (عصر الانحطاط الفكري) كبروكلمان الذي وصف إنتاج الحركة الفكرية في عصر المماليك قائلاً: "إن هذا الإنتاج يكاد يكون خلواً من الأصالة والإبداع بالكلية"⁽¹⁾، في حين جاستون فييت يعد الإنتاج الفكري في عصر المماليك بأنه إنتاجاً من الدرجة الثانية،⁽²⁾ أما ول ديورانت فيصف المماليك بالموت الأسود الذي قضى على ازدهار البلاد.⁽³⁾

كما أننا نجد لدى بعض الكتاب العرب كراهية واضحة لذلك العصر، دون ذكر الأسباب، وهذا ما يدفع إلى القول: أن تلك المواقف لا تتم إلا عن آراء فوضوية وأحكام غير موضوعية وقصر نظر وعدم دراسة متأنية وعقلانية لسمات ذلك العصر، فيمكننا القول أن العصر المملوكي بواقعه على غير ما وصفه البعض من المستشرقين والكتاب العرب الذين تحاملوا عليه فخرجت أقوالهم عن المنطق والتصديق، فقد عرف السلاطين المماليك بأنه لا بد من نهضة علمية لتنهض البلاد من كبوتها، لذلك شجعوا التدريس والتعليم فبنوا المدارس والمعاهد العديدة، واستقدموا وجلبوا العلماء من كافة أنحاء العالم، وكان الطابع العام للتعليم وبشكل رئيسي دينياً مع عدم نسيان كافة العلوم الأخرى وخاصة الطبية إذ أنشئت مشافي للمعالجة والتدريس، ومما يدل على النهضة الروحية والثقافية والعلمية ما تركوه للأجيال فيما بعد من خزائن الكتب ودورها بنفائس المؤلفات من جليل الآثار والتراث الضخم في مختلف العلوم والفنون، فغدت مصر في زمنهم قلب العالم الإسلامي والثقافة الإسلامية، فكان العالم الإسلامي سابقاً للعالم الأوربي بنحو قرن

من المدنية، وكانت المدارس الجامعة في القاهرة، قد أثبتت أنوارها في العالم كله، وقصدها الطلاب من المشرق والمغرب.

ومن هنا تأتي المحاولة لتسليط الضوء على علم من العلوم النظرية - اللغة العربية - علم (النحو والصرف)، كون أن اللغة العربية هي الميزان والأساس وهي وعاء الفكر للحضارة العربية الإسلامية في مختلف أطوارها ومراحلها وأدوارها.

- **إشكالية البحث:** يطرح البحث مجموعة من القضايا ذات الطابع السياسي والاجتماعي، والفكري؟ وما هي الدوافع الكامنة وراء محاولة طمس الحقائق العلمية وتأطير هذا العصر في قالب الجمود؟ وكيف كان وضع اللغة العربية في هذا العصر، ومن هم أشهر علماء هذا العصر؟ وأبرز ما قدموه من إنتاج فكري ضمن هذا الحقل المعرفي؟

- **أهمية البحث:** البحث يشكل مادة علمية للمهتمين بدراسة الحياة الفكرية في العصر المملوكي، ولا سيما في مجال اللغة العربية، ومحاولة تسليط الضوء على أبرز علماء النحو والصرف، وأبرز المؤلفات التي ألفت في هذا المجال، ومدى تأثيرها في المجال العلمي.

- **أهداف البحث:** يهدف البحث إلى دراسة الحياة الفكرية، وعلى وجه التحديد اللغة العربية، (النحو والصرف) ومحاولة حصر أعلام هذا الفن، وتسليط الضوء على أهم مؤلفاتهم، والتي كان لها الأثر البالغ في مسيرة هذا الفن.

- **منهج البحث:** اعتمد البحث على جمع المادة العلمية التاريخية من المصادر والمراجع ذات الصلة المباشرة والوثيقة بموضوع البحث وتحليلها واستقراءها ومقارنتها مع بعضها، بغية الوصول إلى صورة واضحة وجلية عن علماء هذا الفن وما قدموه من إنجازات فكرية وحضارية في مسيرة الحضارة العربية والإسلامية.

- **مصطلحات البحث:** النحو والصرف - أبو الأسود الدؤلي - سيبويه - ألفية ابن مالك - تسهيل الفوائد - الكافية الشافية - أثير الدين أبو حيان الغرناطي - ابن هشام - ابن عقيل - السيوطي .

ثانياً: نشأة علم النحو والصرف:

النحو: هو تدوين أحكام اللغة العربية، ووضع مقاييسها، واستنباط قوانينها،⁽⁴⁾ أما **الصرف:** فهو علم يعرف منه أنواع المفردات الموضوعة بالوضع النوعي ومدلولاتها، والهيئات الأصلية العامة للمفردات، والهيئات التغيرية، وكيفية تغيراتها عن هيئاتها على الوجه بالمقاييس الكلية.⁽⁵⁾

امتاز العرب قبل الإسلام وفي بدايته الدعوة الإسلامية بلغتهم السليمة ولسانهم العربي الفصيح الخالي من العيوب والمثالب والمضبوط على السجية ودون ضوابط لغوية/حيث كان العرب يرسلون أولادهم إلى البادية لتعلم اللغة العربية السليمة/، ولم تكن هناك حاجة لوضع علم أو قواعد للغة العربية.

لكن مع انتشار الإسلام كاد اللحن أن يكتسح اللغة العربية بما قذف فيها، واستفحال خطرهم على مر الأيام، وتسربت عدواه إلى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، لذلك ظهرت الحاجة إلى وضع علم يضبط اللغة العربية، فظهر علم النحو.⁽⁶⁾

وتعزو أغلب المصادر إلى أن واضع علم النحو، سواء أكان إحساساً إلى ضرورته أم كان إشارة من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أم من الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه أم من الوالي زياد بن أبيه ، إلى ظالم بن عمرو المشهور بأبو الأسود الدؤلي (ت 69هـ/ 688م)، الذي أمره الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه بوضع النحو، فلما أراه أبو الأسود ما وضع، قال: "ما أحسن هذا النحو الذي نحوت"، ومن ثم سمي النحو نحواً، وهو أول من وضع باب الفاعل والمفعول والمضاف والرفع والنصب والجر والجزم، وقيل أنه أول من نقط المصاحف.⁽⁷⁾

ولم يكد أبو الأسود الدؤلي يضع علم النحو، ويعلم الناس بأمره حتى أقبل تلاميذه عليه، يأخذون عنه، ثم يأخذ تلاميذهم عنهم من بعده، وهكذا جعل النحاة يتتبعون مع الأيام طبقات ، يأخذ اللاحقون منهم عن السابقين، وجعل النحو ينمو غرسه، ويشتد عوده عصاراً بعد عصر.⁽⁸⁾

ومن أشهر علماء النحو بعد أبو الأسود الدؤلي الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي (ت 170هـ/ 786م) الذي كان من أئمة اللغة والأدب، وشيخ النحاة،

وواضع علم العروض،⁽⁹⁾ وعمرو بن عثمان بن قنبر المعروف بسبويه (ت180هـ/796م) إمام النحاة، وأول من بسط علم النحو، وصنف كتابه المسمى كتاب سبويه في النحو، لم يصنع قبله ولا بعده،⁽¹⁰⁾ والزمخشري محمود بن عمر بن محمد (ت583هـ/1143م) العلامة النحوي اللغوي المفسر، صاحب كتاب "المفصل" في النحو الذي اعتنى بشرحه خلق كثير،⁽¹¹⁾ وابن الحاجب أبو عمرو عثمان بن عمر بن محمد (ت646هـ/1248م) الإمام العلامة النحوي صاحب التصانيف، من أشهرها (الحاجبية) وهي المقدمة الموسومة بـ "كافية ذوي الأرب" وهي خمس كتب، واحد في النحو وآخر في التصريف وآخر في تمرين التصريف والآخزان في العروض والقوافي.⁽¹²⁾

ثالثاً: اللغة العربية في العصر المملوكي:

بعد انهيار معقل الخلافة العربية الإسلامية تحت حوافر المغول في بغداد، وضياح الجهد الحضاري العظيم الذي قام به علماء الأمة ومفكريها، والذي جعلها تتبوأ أعلى مدارج الحضارة الإنسانية، وكان للغة العربية نصيبها من هذا الشر المستطير وأصابها الوهن والضياع، حفظ أباؤها في مصر والشام زمن المماليك اللغة العربية، بل ازدهرت ازدهاراً كبيراً وذلك لعناية السلاطين بها ، وجعلها لغة رسمية للدولة،⁽¹³⁾ فلقد ظل المماليك مع تحدثهم باللغة التركية يحافظون على الآداب العامة العربية، وكان اهتمامهم باللغة العربية عظيماً جداً ،ذلك أن سيطرة المماليك السياسية المباشرة على مقاليد الأمور، لم يغير من الأمر شيئاً ، لأنهم كانوا يحكمون من وراء ستار، وعلى هذا لم يحدث للعربية ما يعرقل من مسيرتها أو يؤثر في حيويتها وأصالتها نتيجة الحكم المملوكي.

وأما ما اعتراها من وهن ، دفع المختصين بالأدب عد العصر المملوكي عصر انحطاط للأدب العربي، فهو انحطاط نسبي – لأن العربية – مع ما كان لها من مركز مرموق في عصر المماليك – لم تكن لتضاهي بطبيعة الحال – العصر العباسي الذي شهد فيه الأدب العربي عصره الذهبي.⁽¹⁴⁾

إذاً يمكن القول إنَّ اللغة العربية قد حافظت على مكانتها وأصالتها، وبقيت اللغة العربية لغة الفكر والإنتاج ولغة الدولة الرسمية، ويكفي أن نشير أن ديوان الإنشاء وهو

من أهم دواوين الدولة لا يمكن لأي شخص العمل به إلا إذا كان يتقن اللغة العربية وآدابها، وخير دليل على ذلك ما قاله ابن شاهين الظاهري في شأن كاتب الإنشاء: ((ومن شروط براعته معرفة آيات القرآن، وأسباب نزولها، وعلم الأحاديث النبوية، وكنة مدلولها، وفهم سير الملوك الأولين في أفاعيلها وأقاويلها، والتضلع من الحكم والأمثال بتقريعها وتأصيلها، والتطلع على وقائع الغرب بجمالها وتفصيلها، والتوسع في أبحر المعاني الشعرية ما بين مقاربتها وطويلها، فبذلك زمام البلاغة والبراعة، ويرقى على أهل هذه الصناعة، فإذا أمر السلطان بكتاب تخير له أفصح ألفاظه وأرجح معانيه، وجعل مطلع وعائه شعراً بالغرض المودع فيه، ويختصر تارةً ويطنب أخرى، ويستعمل في كل مقام ما هو أليق به وأحرى)). (15)

وكون أن اللغة العربية هي لغة الفكر واللغة الرسمية، فكان لها نصيبها من النتاج الفكري المتعدد الفروع، فقد تطور نظام جمع ألفاظ اللغة العربية (المعاجم) إذ أخذت تتحو نحو الترتيب حسب أحرف الهجاء، وقد اتبع هذا النهج علماء اللغة في العصر المملوكي، وقد تعددت المعاجم وتنوعت، ويمكن القول إن أول معجم في العصر المملوكي، صنّفه ابن مالك (ت672هـ/1273م) وهو (إكمال الأعلام بمثلث الكلام) (16) وهو عبارة عن أرجوزة مؤلفة من ثلاثة آلاف بيت، وهو كتاب هام، إذ يذكر مجموعة كبيرة من الألفاظ التي تختلف معانيها باختلاف حركات حروفها الثلاث. (17)

ومن أشهر مصنفي المعاجم الكبرى في هذا العصر، ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الأنصاري (ت711هـ/1311م) الذي اشتغل باللغة وعلومها، وله نظم ونثر، وقد ترك بخطه خمس مائة مجلد، وجمع في اللغة معجماً سماه (لسان العرب) (18) وهو معجم مطول رتبت فيه الألفاظ بحسب أواخرها، وشرح الألفاظ شرحاً مفصلاً، واتي بالشواهد من القرآن والأحاديث والأشعار والخطب. (19)

أما الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب بن إبراهيم بن عمر (ت817هـ/1414م) اللغوي العلامة، والذي تنقل بين العراق ومصر والشام، وأصبح مرجع عصره، وضع (القاموس المحيط) (20) الذي اختصر فيه كتاباً في اللغة سماه (اللامع المَعْلَم العجائب بين المحكم والعباب) وقد ضاع، أما القاموس المحيط فهو أكثر المعاجم تداولاً، ومما يدل

على شهرته إطلاق اسمه على كل معجم لغوي ، وهو مرتب بحسب أواخر الكلم، ومن خصائصه الإيجاز. (21)

كما أن معين الشعر لم ينضب، وقرائح الشعراء لم تجف، ومن أهم مميزات الشعر في هذا العصر، هو وقوعه بوباء التتميق اللفظي الذي ذهب برونقه، وإذا ما أزيح ستار الألفاظ البراقة لا نرى إلا معان مكرورة مسروقة غثة، كما أولع الشعراء بالتورية، ونظموا الألغاز والأحاجي ، واستكثروا لإظهار براعتهم وحذقهم، وبالوقوف التاريخ الشعري، ومما شاع في هذا العصر المدائح النبوية ، ولم يحجم الشعراء عن وصف الأشياء المألوفة، وقد أسرف الشعراء في استعمال الكلام العادي الصريح في الهجر، والتعابير البذيئة، والغزل، وانتشرت في الشعر الألفاظ العامية، والكلام غير المعرب والأوزان الشعبية من مثل /المواليا/ و/ الزجل/ و/الدوبيت/ و/الموشح/ وغيرها. (22)

ومن أشهر شعراء هذا العصر على سبيل التمثيل وليس الحصر محمد بن سعيد ابن صنهاج البوصيري (ت695هـ/1295م) البارع في النظم، وكانت أشهر آثاره (البردة) الشهيرة التي مدح بها النبي محمد ﷺ، و صفي الدين الحلبي عبد العزيز بن سرايا (ت750هـ/1349م) وابن نباتة محمد بن محمد بن محمد بن الحسن (ت768هـ/1366م) الذي كان يعد أشهر شعراء عصره، وممن برع في الشعر والنثر ابن حجة الحموي أبو بكر بن علي (ت837هـ/1433م).

ومن أدباء هذا العصر وكتابه، محي الدين عبد الله بن عبد الظاهر (ت692هـ/1292م) كاتب الإنشاء بالديار المصرية، وممن عُني بالأدب وكانت له اليد الطولى فيه محمود بن سليمان بن فهد الحلبي (ت725هـ/1324م) شيخ صناعة الإنشاء، ونصل إلى إمام أهل الأدب شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت749هـ/1348م)، والذي انتهت إليه رئاسة الإنشاء، وصاحب موسوعة (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)، وممن برع في مجال الأدب شهاب الدين أحمد بن علي ابن أحمد القلقشندي (ت821هـ/1418م) صاحب الموسوعة الشاملة (صبح الأعشى في صناعة الإنشاء)، أما رأس أدباء العصر كما وصفه السيوطي فهو ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي الحموي (ت837هـ/1433م) وله من المصنفات (ثمرات

الأوراق) و(خزانة الأدب وغاية الإرب)⁽²³⁾، وجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، صاحب المؤلفات الغزيرة ولا سيما في مجال الأدب.

وفي الحقيقة إن ما ألف في هذا العصر من فنون أدبية غزيرة جداً، مما يجعل من الصعوبة بمكان حصرها، فقد تعانى علماء هذا العصر الأدب بمختلف فنونه وأشكاله وأصنافه، فنادراً ما نلاحظ أن عالماً في مجال الفقه أو التفسير أو علوم القرآن أو الحديث وغيرها من العلوم الرائجة في هذا العصر ما تعانى صناعة الأدب أو ألف فيها، حتى أن كثيراً من علماء العلوم العلمية التطبيقية كان بارعاً في العلوم الأدبية، وكان مشاركاً بها.

إذاً يمكن القول أنها سمة اتسم بها العصر المملوكي في مجال العلوم الفكرية، وهي سيادة علوم وفنون اللغة العربية وريادتها على ما سواها من علوم.

رابعاً: علم (النحو والصرف) في العصر المملوكي:

يمكن القول أن مصر والشام كانتا آنذاك ملتقى علماء المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها، وتوالت النهضة في القطرين على امتداد هذا العصر، ومن الإنصاف القول أن عماد هذه الحركة - حركة علم النحو - هم رجال الأندلس والمغرب، الذين بثوا علمهم وأداعوا مصنفاتهم فيها بين الناس، فتخرج على يديهم تلاميذ كانوا كواكب العصور المتأخرة، وصارت نبراساً لمن صنف بعدهم من العلماء،⁽²⁴⁾ وهذا ما أكده ابن خلدون في مقدمته عندما قال: "وكان لكل فن رجال يرجع إليهم فيه وأوضاع يستفاد منها المتعلم، واختص المشرق من ذلك والمغرب بما هو مشهور منها، وقد كسدت لهذا العصر أسواق العلم بالمغرب لتناقص العمران فيه وانقطاع سند العلم والتعليم، أما في المشرق فقد اتصل التعليم في العلوم وفي سائر الصنائع الضرورية والكمالية لكثرة عمرانها والحضارة ووجود الإعانة لطالب العلم بالجرية من الأوقاف التي اتسعت بها أرزاقهم".⁽²⁵⁾

وفي هذا العصر فاضت دراسة النحو واهتم علماء الشام ومصر اهتماماً بالغاً بالأبحاث النحوية، وكانت الدراسة في أول أمرها بسيطة تحاول استعادة ما فقد النحو من الازدهار، إلى أن ظهر في هذين القطرين جهابذة علم النحو، ويمكن القول إن فلسفة النحو العربي بدأت تتضح في التصانيف الجديدة بعد أن وضعت المتون وشرحت

قواعدها، ونوقشت مسائلها، وتعددت مذاهبها وأوجهها، لاختلاف العلماء أولاً، وتباين الأفكار ثانياً، بين بصري وكوفي، وبغدادى وأندلسي، ومصري وشامي، ونشطت حركة التأليف لتزايد الإقبال عليها، فجمعوا فيها بين وجيز ووسيط وبسيط، ووفق المؤلفون ينشئون المتون مع استيعابها لما في المطولات ويفتنون في سبيل إيجازها ومن هنا مست الحاجة إلى الشروح.⁽²⁶⁾

وأول الذين أحدثوا نهضة نحوية بهذا العصر، الشيخ جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الطائي النحوي (ت672هـ/1273م) إمام النحاة، وحافظ اللغة، وصاحب التصانيف المشهورة المفيدة، وعلى رأسها ألفيته المشهورة في النحو، والتي جمع فيها مقاصد العربية، وسماها الخلاصة، واشتهرت بالألفية لأنها أكثر من ألف بيت في الرجز،⁽²⁷⁾ وكتابه الثاني الذي حظي بالشهرة هو (تسهيل الفوائد) في النحو، والذي قال عنه أبو حيان الأندلسي: ((لا يكون تحت السماء أنحى ممن عرف ما في تسهيله))⁽²⁸⁾ أي تسهيل الفوائد، وله أيضاً كتاب (الكافية الشافية) في النحو، و(إكمال الأعلام بمثلث الكلام) و(الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة) و(سبك المنظوم وفك المختوم) و(سما حرز المعاني في اختصار حرز الأمانى) و(عهدة الحافظ وعدة اللافظ) و(مفتاح الأفعال) منظومة في الصرف، و(ثلاثية الأفعال) و(رسالة في الاشتقاق) و(رسالة في بعض الصيغ ومعانيها واستعمالها) و(الوافية في شرح الكافية) و(أرجوزة في الضاد والطاء) و(الخلاصة الألفية) و(تحصيل الفوائد وتكميل المقاصد) في النحو، و(شفاء العليل في إيضاح التسهيل) و(المقصود والممدود) و(فعل وأفعل) و(النظم الأوجز فيما يهزم وما لا يهزم) و(الاعتقاد في الطاء والضاد) و(إعراب مشكل البخاري).

وقد قال عنه الذهبي: "وأما النحو والتصريف فكان بحراً لا يجارى، وحبراً لا يبارى، وأما أشعار العرب التي يستشهد بها على اللغة والنحو فكانت الأئمة الأعلام يتحiron فيه ويتعجبون من أين يأتي بها".⁽²⁹⁾

وممن اشتهر في هذا العصر محمد بن علي بن موسى الأنصاري أمين الدين المحلي (ت673هـ/1275م) النحوي العروضي الكاتب، قرأ الأدب والنحو وانتفع به جماعة،⁽³⁰⁾ واحمد بن إدريس بن عبد الرحمن القرافي (ت684هـ/1285م) الذي صنف

في أصول الفقه والنحو الكتب المفيدة، منها (التتقيح وشرحه) وله (أنوار البروق وأنواء الفروق) وهو كتاب جيد كثير الفوائد، فيه غرائب وفوائد من علوم عديدة،⁽³¹⁾ ومحمد بن عبد الله بن عبد العزيز الإسكندراني حافي رأسه النحوي (ت 693هـ/1293م) والذي قال عنه أثير الدين ابن حيان: "وهو أحد النحاة الثلاثة المحمدين في عصر واحد، هو في الإسكندرية، وابن النحاس في مصر، وابن مالك في دمشق".⁽³²⁾

ومن نحاة هذا العصر المشهورين والذي يقف شاهداً على مقدار تطور علم النحو والصرف أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي، أبو حيان الأندلسي (ت 745هـ/1344م)، والذي وصفه الصفدي بقوله: "الإمام الحافظ العلامة فريد العصر وشيخ الزمان وإمام النحاة، لم أره قط إلا يسمع أو يشغل أو يكتب أو ينظر في كتاب، ولم أره على غير ذلك، وكان له إقبال على أذكى الطلبة يعظمهم وينوه بقدرهم، وكان كثير النظم من الأشعار والموشحات، وكان ثباتاً فيما ينقله عارفاً بالغة، وأما النحو والتصريف فهو الإمام المطلق، خدم هذا الفن أكثر عمره حتى صار لا يذكر أحد في أقطار الأرض فيهما غيره، وله التصانيف التي سارت في آفاق الأرض واشتهرت في حياته، وأقرأ الناس قديماً وحديثاً حتى ألحق الصغار بالكبار وصارت تلامذته أئمة وأشياخاً في حياته، وهو الذي جسر الناس على قراءة كتب ابن مالك ورجبهم فيها، وشرح لهم غامضها"،⁽³³⁾ ومن مصنفاته (شرح التسهيل) لابن مالك في النحو، (التذكرة) (الموفور) (التذكير) (المبدع) (التقريب) (التدريب) (غاية الإحسان) (النكت الحسان) (الشدى في مسألة كذا) (الارتضاء في الفرق بين الضاد والطاء) (عقد اللآلئ) (النافع) (المورد الغمر) (الروض الباسم) (المزن الهامر) (الرمزة) (تقريب النائي) (غاية المطلوب) (التبر الجلي الوهاج في اختصار المنهاج) (الأنوار الآجلى في اختصار المحلي) (الحلل الحالية) (الأعلام) (نثر الزهر في نظم الزهر) (القطر الحلبي) (الفهرست) (نوافث السحر في دمائث الشعر) (مجانى الهصر) (تحفة الندس في نحاة الأندلس) (الأبيات الوافية في القافية) (الإدراك للسان الترك) (زهو الملك في نحو الترك) (الأفعال في لسان الترك) (منطق الخرس بلسان الفرس) (نور الغبش في لسان الحبش) (المحبور في لسان الحيمور) (مسالك الرشد) (منهج السالك) (نهاية الأعراب) (خلاصة

البيان) (كتاب الأسفار) شرحاً لكتاب سيوييه، (كتاب التجريد لأحكام سيوييه) (المبدع في التصريف) (اللمحة البدرية في علم العربية) (ارتشاف الضرب من لسان العرب).⁽³⁴⁾

ومن علماء هذا الفن الحسن بن قاسم بن عبد الله بن علي المراكشي المصري المعروف بابن أم قاسم (ت749هـ/1348م) النحوي اللغوي الفقيه البارع، من تصانيفه (شرح المفصل) للزمخشري في النحو، و(شرح تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد) لابن مالك في النحو، و(شرح الألفية) وله (الجنبي الداني في حروف المعاني).⁽³⁵⁾

ومن أعلام النحو شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم بن محمد الحلبي، (ت756هـ/1355م) النحوي نزيل القاهرة، تعانى النحو فمهر فيه، ولازم أبا حيان إلى أن فاق أقرانه، ومن مصنفاته (الدر المصون في الإعراب) في ثلاثة أسفار بخطه، و(شرح التسهيل والشاطبية) وله كتاب (إعراب القرآن) في مجلدين ضخمين.⁽³⁶⁾

وكذلك الشيخ الإمام العالم جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن أحمد ابن هشام الأنصاري النحوي (ت761هـ/1359م) كان بارعاً في عدة علوم، لا سيما العربية، فإنه كان فارسها ومالك زمامها، وصنف تصانيف كثيرة مفيدة ومشهورة، وهو صاحب الشرح على ألفية ابن مالك في النحو المسمى (التوضيح) وشرح أيضاً (البردة) وشرح (بانة سعاد) وكتاب (المغني) وشرح كتاب (اللمحة البدرية) لأثير الدين محمد ابن يوسف الغرناطي، و(مغني اللبيب عن كتب الأعراب) وهو من أجل كتبه قدراً وأبعدها أثراً، وبين كتب العربية عامة أكثرها استيعاباً ونفعاً، ومن خلاله عد ابن هشام صاحب أول كتاب في النحو بمنهج جديد، حيث اختط فيه منهجاً لم يسبق إليه، حيث قسمه إلى قسمين كبيرين، أفرد القسم الأول للحروف والأدوات، فوضح أحكام وخصائص متنوعة كأحكام الجار والمجرور، وخصائص الأبواب النحوية وصور العبارات الغربية، وشرح (الشافية) وسماه (عمدة الطالب في تحقيق تصريف ابن الحاجب) و(نبذة من قواعد الإعراب) و(نكتة الإعراب) و(مسائل أجوبتها في النحو) و(أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك) و(الإعراب عن قواعد الإعراب) وهو من أحسن الكتب تأليفاً وتبويباً، فيه معالجات لمشكلات الإعراب وتعايير المعريين ومصطلحاتهم، فهو كتاب جديد في أسلوبه ومادته وبحثه، وله (المسائل الشعرية في النحو) و(نزهة الطرف في علم الصرف) و(الروضة

الأدبية في شواهد علوم العربية) و(رسالة في استعمال المنادى في تسع آيات من القرآن) و(كتاب في مسائل نحوية).⁽³⁷⁾

وممن اشتهر في علم النحو في هذا العصر عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد بن محمد بن عقيل القرشي البالسي ثم المصري (ت769هـ/1367م) كان إماماً في العربية والبيان، أطلق عليه نحوي الديار المصرية، لازم أبو حيان حتى كان من أجل تلامذته وصار يشهد له بالمهارة في العربية حتى قال: "ما نحت أديم السماء أنحى من ابن عقيل" من تصانيفه (شرح الألفية) لابن مالك و(شرح تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد) لابن مالك سماه (المساعد).⁽³⁸⁾

وعبد الرحيم بن الحسن بن علي بن عمر الأسنوي الأصولي النحوي العروضي (ت772هـ/1370م) له في النحو (الكواكب الدرية في تنزيل الفروع الفقهية على القواعد النحوية) و(شرح الألفية) و(شرح عروض ابن الحاجب).⁽³⁹⁾

ومحمد بن يوسف بن أحمد بن عبد الدائم التميمي المصري الحلبي المعروف بناظر الجيش (ت778هـ/1376م) نحوي، من أشهر تصانيفه (تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد) لابن مالك في النحو،⁽⁴⁰⁾ ومحب الدين محمد بن عبد الله بن يوسف بن هشام النحوي، (ت779هـ/1396م) الذي تصدى لإقراء النحو سنين وانتفع به جماعة من الطلبة.⁽⁴¹⁾

ومن أشهر النحاة محمد بن أبي بكر بن عمر بن أبي بكر الإسكندراني المعروف بابن الدماميني (ت827هـ/1423م) النحوي الأديب، تفقه وعانى الآداب، فتفوق في النحو والنظم والنثر والخط، ودرس بعدة مدارس، وتقدم ومهر، واشتهر ذكره، وتصدر بالجامع الأزهر لإقراء النحو، وله من التصانيف (تحفة الغريب في حاشية مغني اللبيب) لابن هشام، و(شرح التسهيل) وله (جواهر البحور في العروض)، وله (شرح البخاري) وقف عليه المؤرخ السخاوي، وقال عنه: "وقد وقفت عليه في مجلد وجله في الإعراب ونحوه".⁽⁴²⁾

ونصل إلى خاتمة العصر جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن الكمال بن أبي بكر بن محمد السيوطي (ت911هـ/1505م) والذي يمثل العقلية الموسوعية التي

اتسم بها عصره والذي خلف عدداً هائلاً من الكتب في مختلف المواضيع، حتى أصبح مضرب المثل في كثرة التصنيف، وتناول جميع أنواع المعارف بالتأليف والدراسة والبحث، بل كان السيوطي بحد ذاته دائرة معارف واسعة، جمع في ذهنه مختلف العلوم والفنون النقلية والعقلية، ومن أشهر مؤلفاته في مجال اللغة العربية والنحو هي: (شرح ألفية ابن مالك) والمسمى بـ(البهجة المضوية في شرح الألفية) وله (الفريدة في النحو والتصريف والخط) (النكت على الألفية والكافية والشافية والشذور والنزهة) (الفتح القريب على مغني اللبيب) (شرح شواهد المغني) (الأخبار المروية في سبب وضع العربية) (المساعد العلية في القواعد النحوية).⁽⁴³⁾

خامساً: الخاتمة:

من خلال هذا العرض السريع والموجز يتضح لنا أن الحركة الفكرية في هذا العصر ما هي إلا امتداد طبيعي للحركة الفكرية للعصور السالفة للحضارة العربية الإسلامية، فعلى الرغم من الظروف الاستثنائية والقاهرة التي عصفت بعاصمة الخلافة العربية والإسلامية وما ألم بمدن العراق وبلاد الشام من ويلات، إلا أن النهضة الفكرية جاءت في أولويات الاستجابة لهذا التحدي، فكان علماء مشارق الأرض العربية مع علماء مغربها السند والعضد للعقل الجمعي لهذه الأمة، فكان للظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية دورها في إكمال مسيرة السلف، فكانت الرعاية من قبل السلاطين وتهيئة الظروف والبنية العلمية من أوقاف ومراكز تعليمية وأدوات التعليم، لتزهر مختلف أنواع العلوم والمعارف سواء منها النظرية أو العلمية.

وكان للغة العربية دور أساسي ومحوري في النهضة، فاللغة وعاء الفكر وحاضنه الأساسي، ومن هنا تجلّى الإبداع في مختلف فنون اللغة العربية، فتلازمت العلوم والفنون وامتزجت معها، فالفقيه والمحدث والمفسر والمؤرخ والرياضي والفلكي والعامل في الطب وحتى السياسي كانت أدواته وقصيبته اللغة العربية.

ومن بين فنون اللغة العربية وأقسامها كان علم (النحو والصرف) والذي كما تبين سابقاً أنه قد حظي بالرعاية ورزق بالعناية، فظهرت إبداعات ما تزال شامخة وراسخة بالأذهان كألفية ابن مالك في النحو والتي شرحها أكثر من أربعين عالماً، كما تناولها

بعض العلماء بالإعراب، وبعضهم بالاختصار، ووضع لها عدد منهم الحواشي، واتجه آخرون إلى تحويلها من نظم إلى كلام منثور، كمان أن كتابه الآخر التسهيل قد شرحه أكثر من خمسة وعشرين عالماً، كما حوله بعض العلماء إلى كلام منظوم.

كما تجلت العبقرية النحوية لدى أبو حيان الغرناطي، والذي لقب بشيخ النحاة، واشتهرت تصانيفه في الشرق والغرب، وكذلك ابن هشام الذي قيل عنه أنه أنحى من سيبويه، وابن عقيل الملقب برئيس العلماء ونحوي الديار المصرية، والعالم الموسوعي السيوطي.

إذا لا يمكن قصر النظر وإطلاق أحكام مسبقة وفرض قوالب جامدة والإدعاء أن هذا العصر هو عصر انحطاط وتراجع فكري، بل ما ذكر في هذا الفن فقط يدل على أن هؤلاء الرجال كانوا نبراساً وضاءاً في سماء اللغة العربية، وأن مؤلفاتهم خطت النور لتغدو مشاعل هداية لكل العصور اللاحقة.

الهوامش

- (1). بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، تر: نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1953م، ج2، ص248.
- (2). فيت، جاستون: القاهرة مدينة الفن والتجارة، تر: مصطفى العبادي، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت، نيويورك، 1968م، ص106. 107.
- (3). ديورانت، ول: قصة الحضارة، تر: علي أبو درة، دار الجيل، بيروت، ج26، ص51.
- (4). القنوجي، صديق بن حسن: أبجد العلوم، الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، تح: عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978م، ج1، ص269 .
- (5). القنوجي : أبجد العلوم، ج2، ص345 .
- (6). الطنطاوي، أحمد: نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، دار المعارف، القاهرة، ط2، ص8؛ ناصف، علي النجدي: تاريخ النحو، دار المعارف، القاهرة، ص7.
- (7). الذهبي، محمد بن أحمد: تاريخ الإسلام، تح: بشار عواد معروف وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1988م، ج5، ص267؛ الصفدي، خليل بن أيك: الوافي بالوفيات، اعتناء يوسف فان آس، جمعية المستشرقين الألمانية، ط2، 1982م، ج16، ص305؛ ناصف: تاريخ النحو، ص8 .
- (8). ناصف : تاريخ النحو، ص8 .
- (9). ابن كثير، إسماعيل بن عمر: البداية والنهاية، هجر للطباعة والنشر، ج13، ص563؛ الزركلي، خير الدين: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002م، ج2، ص314.
- (10). ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص606؛ الزركلي: الأعلام، ج5، ص81.
- (11). ابن خلكان، أحمد بن محمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج5، ص168 وما بعد؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج36، ص486.

- (12). ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص248؛ الصفي: الوافي، ج19، ص321، 324.
- (13). عاشور، سعيد: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ص132. 133.
- (14). العلبي، أكرم: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 1982م، ص159.
- (15). ابن شاهين الظاهري، غرس الدين خليل: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997م، ص83.
- (16). حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تصحيح محمد شرف الدين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1941م، مج1، ص144.
- (17). موسى باشا، عمر: الأدب في بلاد الشام في عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، دار الفكر، بيروت، دمشق، ط1، 1989م، ص149.
- (18). الذهبي، محمد بن أحمد: معجم شيوخ الذهبي، تح روية عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1990م، ص576.575.
- (19). الفاخوري، حنا: تاريخ الأدب العربي، المطبعة البولسية، ص874.
- (20). السخاوي، محمد بن عبد الرحمن: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة الحياة، بيروت، ج1، ص79 وما بعد.
- (21). الفاخوري: تاريخ الأدب، ص875.
- (22). الفاخوري: تاريخ الأدب، ص862، 864.
- (23). السوطي، عبد الرحمن: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997م، مج1، ص467.
- (24). الطنطاوي: نشأة النحو، ص270.

- (25). ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: المقدمة، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، ج1، ص364.
- (26). موسى باشا: الأدب في بلاد الشام، ص150؛ الطنطاوي: نشأة النحو، ص271. 272.
- (27). حاجي خليفة: كشف الظنون، مج1، ص151 وما بعد.
- (28). التلمساني، أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1968م، ص706.
- (29). -الذهبي: تاريخ الإسلام، ج50، ص108 وما بعد؛ الصفي: الوافي، ج3، ص285 وما بعد؛ كحالة، عمر رضا: معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1993م، ج3، ص450.
- (30). -اليونيني، موسى بن محمد: ذيل مرآة الزمان، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط2، 1992م، ج3، ص101، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج50، ص137.
- (31). الصفي: الوافي، ج6، ص146. 147؛ ابن تغري بردي، يوسف: المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تح: نبيل عبد العزيز، المؤسسة المصرية، 1985م، ج1، ص232.
- (32). الصفي: الوافي، ج3، ص289. 290؛ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط2، 1979م، ج1، ص138.
- (33). الصفي: الوافي، ج5، ص175. 176.
- (34). الصفي: الوافي، ج5، ص184. 185؛ ابن حجر، أحمد بن علي: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت، 1993م، مج4، ص302 وما بعد؛ الزركلي: الأعلام، ج7، ص152.
- (35). ابن حجر: الدرر، مج2، ص32؛ السيوطي: بغية الوعاة، ج1، ص517؛ كحالة: معجم المؤلفين، ج1، ص578.

- (36). ابن حجر: الدرر، مج1، ص339؛ الطباخ، محمد راغب: أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، تحك محمد كمال، دار القلم العربي، حلب، ط2، 1988م، ج5، ص27.26.
- (37). المقرئزي، أحمد بن علي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تح عبد القادر محمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997م، ج4، ص248؛ ابن تغري بردي، يوسف: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تقديم: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1992م، ج10، ص262.263؛ كحالة: معجم المؤلفين، ج2، ص305.306؛ أبو خليل، شوقي. أباطة، نزار: موسوعة الأوائل والمبدعين، دار المنبر، دمشق، ج5، ص881.
- (38). ابن حجر: الدرر، مج2، ص366.367؛ السيوطي: بغية الوعاة، ج2، ص47.48؛ كحالة: معجم المؤلفين، ج2، ص251.
- (39). ابن حجر: الدرر، مج2، ص354؛ السيوطي: بغية الوعاة، ج2، ص92.
- (40). ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج11، ص114؛ كحالة: معجم المؤلفين، ج3، ص779.
- (41). ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص123؛ ابن العماد، عبد الحي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الميسرة، بيروت، ط2، 1979م، ج6، ص361.
- (42). السخاوي: الضوء اللامع، ج4، ص184.185؛ السيوطي: بغية الوعاة، ج1، ص57.66.
- (43). السيوطي: حسن المحاضرة، مج1، ص288.291 وما بعد؛ الشوكاني، محمد بن علي: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة بيروت، ط1، 1929م، ج1، ص328.

